مؤتمر مكة المكرمة الثامن

[الخطاب الإسلامي وإشكاليات العصر]

٥-٧ ذي الحجة/١٤٢٨هـ

١٥-١٧ ديسمبر/ ٢٠٠٧م

بحث بعنوان :

[أهمية الخطاب وحاجة الإنسان إليه]

إعداد :

د. أحمد بن نعمان

ملخص البحث

يشتمل البحث على خمسة أجزاء أو عناصر هي:

- الخطاب من خصائص الإنسان ومستلزمات وظيفته في الحياة.
- دور الخطاب في تبليغ الرسالات السماوية إلى البشر.
- مميزات الخطاب القرآني في الدعوة والتبليغ.
- بعض الملاحظات حول واقع الخطاب الدعوي المعاصر.
- بعض المقترحات المتعلقة بأولويات الخطاب الإسلامي.

يتناول البحث أبرز خاصيتين في الإنسان، وهما العقل والنطق، كما يبرز الوظيفة الأساسية للإنسان في الحياة، ألا وهي الخلافة والعبادة، ويثبت أن العبادة لا بد لها من منهج يحدده المعبود، وهو ما تم بالفعل مع آدم الإنسان الناطق، وآدم النبي والرسول المبعوث بمنهج التكليف الأول، له ولزوجه، ثم الوارثين للرسالة من بعده من الأنبياء والمرسلين المكلفين بنقل خطاب السماء إلى الأرض، وإبراز أهمية الخطاب في تبليغ الرسالات السماوية التكليفية للعباد من جهة، وحاجة الإنسان إلى الخطاب مع بني جنسه في المكان من جهة أخرى، لما للكلام من ضرورة في حياة الإنسان المميز به عن الحيوان، ولما لأهميته الحضارية القصوى في نقل الخبرات الإنسانية عبر الأجيال المتعاقبة على مراحل تاريخ البشرية.

وبما أن وظيفة الإنسان في الحياة هي الاستخلاف والعبادة... فكان لا بد من وجود خطاب، ورسول، وموضوع خطاب ووسيلة تبليغ خطاب، ألا وهي الكتب السماوية، مع الإشارة إلى أن كل الرسالات السابقة كان منهجها مفصولا عن معجزات الأنبياء المادية، إلا الرسالة الخاتمة، فكانت معجزتها متضمنة في الرسالة ذاتها، تحمل عوامل إقناعها في ذاتها، ومعجزتها في كونها لا تنقضي عجائبها إلى قيام الساعة!

ونظرا لهذه الميزة الفريدة التي خصّ الله بها الرسالة الخالدة... فإن لها مميزات لسانية وخطابية في الشكل والأسلوب والمضمون، جعلها نموذجا للخطاب الرسالي في كل زمان، ويورد الباحث نماذج من النص القرآني الحكيم، التي يثبت بها هذا المثال الرائع في الأسلوب المطلوب توفره في خطاب الدعوة إلى الحق بالتي هي أحسن، فأظهر البحث في هذا الجزء بكثير من الأمثلة والشواهد أن الخطاب القرآني من ناحية المضمون، هو جمع بين خطاب الربوبية "**يا أيها الناس**" وخطاب الألوهية "**يا أيها الذين آمنوا**".

ثم يتناول البحث ظاهرة انتشار الإسلام في العالم رغم ما يوجد عليه بعض الدعاة من قصور وتقصير، ويُظهر أنواع المؤامرات التي تُحاك ضد الإسلام والدعاة إليه، وهم نوعان: نوع داخلي يعمل على مكانته عن حسن نية، بقطع النظر عن منهجه (**الذي يتراوح بين الحسن والخشن واللطف والعنف**)، ونوع آخر من خارج الأمة، تخطيطا وتوجيها، وهم ما يمكن تسميتهم بالدعاة "**الغزاة**" أو الدعاة "**الضرار**" المصطنعين على أعين الأعداء أنفسهم، وهم يحملون أسماء إسلامية، وألقابا علمية، وعقيدة (**باطنية**) عدائية للإسلام، تمثل رأس الحربة للأعداء الكنسيين والعلمانيين، الذين أقلقهم تقدم الإسلام بانتشاره الواسع في بلدانهم، مما دفع بابا الفاتيكان إلى دق ناقوس الإنذار لتنبيه كل الدول الغربية إلى الخطر "**الأخضر**" الذي يهدد وجودهم، ثقافيا ودينيا وديموغرافيا وسياسيا، فبادروا إلى اتخاذ كل الإجراءات المضادة للحد من انتشار هذا الخطر في اعتقادهم، فعمدوا إلى نوع من الهجوم الدفاعي ضده في منبعه ومن داخله وبسلاحه وببعض أهله الناطقين بلسان كتابه.

وينتهي البحث باقتراح توجه الخطاب الإسلامي في المستقبل نحو مجال الإعجاز العلمي الذي أتت مساعي القائمين عليه بنتائج طيبة في اقتناع العلماء والباحثين في الدول الغربية ذاتها بالدين الحق، مثبتا إدراك الخصوم لخطورة هذه المقاربة في الدعوة الإسلامية التي تحاربهم بسلاحهم، ألا وهو سلاح العلم والبحث والمحاجة بلغة الأرقام والمخابر التجريبية والقوانين الفيزيائية التي يدعون في خطابهم المضاد أن الإسلام

يتناقض معها في الوجود، وهي في الحقيقة (**التي يجحدونها وتستيقنها أنفسهم**) من صميم الإسلام بنص القرآن!

بسم اللّه الرحمن الرحيم

أهمية الخطاب وحاجة الإنسان إليه

أولاً– الخطاب من خصائص الإنسان ومستلزمات وظيفته في الحياة :

إن لكل كائن حي في هذا الوجود صفات وخصائص بنيوية، ومميزات في الخلق والتكوين جوهرية، ووظيفة أساسية أعد لها في هذه الحياة، ووهبت له من أجلها قدرات نوعية تختلف عما لدى غيره من المخلوقات، وتتكامل معها في دورة الحياة.

ومن خصائص هذا المخلوق الإنساني الفريد من نوعه في العالمين هو تكوينه الثنائي من المادة الترابية العضوية والروح النورانية الأبدية...

ومن مميزاته الجوهرية ما فوق الحيوانية والنباتية، هو خاصية العقل لديه والنطق والحرية، في الاختيار بين البدائل والأغيار، في تقبل الرسالة وتحمل الأمانة والمسؤولية على ما يجترحه من أفعال وما يلفظه من أقوال!!

ومن هنا كان لخاصية النطق والعقل لديه وظيفة مزدوجة، جسدية مادية، وروحية معنوية، حياتية تعبدية دنيوية من جهة، وأخروية من جهة أخرى، متساوية معها في ميزان الجزاء عن العمل خيرا كان أو شرا، قولا كان أو فعلا...

وان ارتباط القول والخطاب والمسؤولية عنهما، والحساب عليهما، بالتبليغ والتذكير والتعبير، يتجلى كله في كلمة الله التي ألقاها في الكون بقوله: «كن»، فكان آدم الإنسان عليه السلام، وبدأ بتكليفه كمستخلف برسالة الحق، بعد ضبط قواعد المهمة الاستخلافية في الأرض، بموهبة النطق والكلام، وتعليمه الأسماء كلها من الجماد والنبات والحيوان... وتحديد شروط العبادة ومنهج السماء للإنسان، بتوضيح معالمه بالأوامر والنواهي المتمثلة في "افعل ولا تفعل"، فبدأت من ساعتئذ مهمة آدم النبي الرسول، وادم البشر المسؤول، وبدأت العبادة والطاعة، وبدأ التذكر

والنسيان، والتمرد والعصيان، وبدأت من ذلك الحين عملية التجاذب والتنافر بين الحق والخير، والظلم والشر، وتواصلت منذئذ رسالة الحق والصدق والمنهج الواضح لكل عاقل ناطق بالغ مسؤول مخير أمام النجدين، من آدم وابنيه المتعارضين... مرورا بكل الأنبياء والمرسلين وأقوامهم المنذرين... إلى خاتمهم أجمعين (محمد) بن عبد الله ث النبي الأمي المكلف بالقراءة، الناطق بالفصاحة، المبعوث بالرسالة الجامعة المانعة، المستوعبة لكل الرسالات، الشاملة لكل العبادات السابقة واللاحقة، المسطرة لكل العقلاء من خلق الله الأولين والآخرين إلى يوم الدين!!

ولهذه المهمة العبادية والتعبدية المستمرة في الحياة من البداية إلى النهاية «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (الذاريات / ٥٦) خص الله الإنسان بموهبة العقل والنطق، مناط التكليف والتشريف والإدراك والفهم والتمييز في الخطاب بين الخطأ والصواب، وتحمل المسؤولية في التلقي عن السماء، ونقل منهج السماء إلى الأغيار بحسن الخطاب بعد حسن التفكير والتدبير، ولهذا كان الحساب والعقاب، وكان الثواب على قدر المشقة والعزيمة في التبليغ والدفاع عن الحق والصواب، وإجادة التفكير والتعبير، للتأثير في نفوس المبلغين بطلاقة اللسان وحجة البيان...

هذا الإنسان الضعيف بالجسد القوي بعبادة ربه، وعلة وجوده من يوم ولادته إلى ساعة قبره، وتحمل مسؤولية الأمانة، ما دون سائر المخلوقات في هذا الوجود، بكل جرأة وجهالة وغرور، وظلم للنفس أحيانا!

ومن ثم وجب التواصل باستمرار بين السماء وأهل الأرض بدون انقطاع ووجب توضيح المنهج وتبليغه بحكمة وقوة وإصرار، ووجب استمرار الدعوة إلى سبيل الحق والخير والصلاح، ولهذا كانت الدعوة إلى دين التوحيد دائما مرتبطة بالعزم والفكر وبالخطاب والذكر، ولو نستعرض هذه الوظيفة الاستخلافية للإنسان لا نكاد نحصيها في القرآن، لما جاء فيه عن كتب الأولين وسير الأنبياء والمرسلين، ويكفي الاستشهاد هنا على سبيل المثال فقط بما ورد في الكتاب المبين من ذكر لآيات السمع المذكورة بعد الخلق في الترتيب وقبل العلم والبصر واللسان والبيان... «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار

والأفئدة لعلّكم تشكرون» (النحل/٧٨) و«إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا» (الإنسان/٢) و«الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان» (الرحمن/ ١، ٤) «ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين» (البلد/٨ ، ١٠) .

فالسمع هو الأول دائما، كما يلاحظ، وهذا لتلقي الرسالة وسماع أوامر التكليف المقروءة والمسطورة، « والطور وكتاب مسطور في رق منشور » (الطور/ ١، ٣) والعلم بها، ثم البصر، لمشاهدة آيات الله، ومعجزاته الملموسة والمحسوسة لتثبيت نبوة المرسلين من عباده الصالحين والمصلحين في كل عصر ومصر، للعلم بها قبل الايمان أو العصيان... حتى لا تكون لتلك الأقوام حجة على الله بعد الرسل «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» (فاطر/ ٢٤) و«لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» (النساء / ١٦٥) و«وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» (الإسراء / ١٥).

وقد وهب الله للإنسان بعد ذلك لسانا وشفتين ليسأل أهل الذكر عن دين الله ومنهجه ليهتدي ويهدي، بعد وعي الكلمات وإدراك الآيات!

ولا شك أن ذلك لا يتأتى لأي إنسان بغير أدوات الخطاب المتمثلة في السمع والنطق والتفكير والتعبير عن مكنونات الضمير... وإذا أمكن للأكمه أن يسمع في الغسق، والأصم أن يبصر في الشفق، فان الأصم لا يتفوه بالحكمة، والأبكم لا ينطق في النور ولا في الظلمة... وهو ما جعل السمع مرتبطا بالنطق في الخلق ارتباط الكلام بالسمع، وارتباط القول بالفعل!

وإن ارتباط الكلام بالسمع وارتباط القول بالفعل كما هو ملاحظ في سنة الخلق، يجعل دور الخطاب في حياة الإنسان أهم، والحساب والعقاب على الخطأ والصواب أشمل وأعم، ويجعل التحرز من ارتكاب الخطأ وتجاوز الحدود في آداب الكلام جزء أساسيا من الأخلاق والنظام العام، في القوانين الوضعية وفي الإسلام!

وان اضطلاع الإنسان (هذا الحيوان الناطق) بمهمة الاستخلاف في الأرض والمتمثلة أساسا كما قلنا، في عبادة الخالق الأوحد الرازق... يجعل من الكلام والخطاب وسيلة أساسية للتلقي عن السماء، وتبليغ أوامر السماء لأهل الأرض في كل زمان ومكان، وجعل اللسان صنو الإنسان، وأداة فاصلة في تميز الثقافات

والديانات للشعوب والأمم «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» (إبراهيم / ٤) وذلك لكون خصيصة النطق والتفكير والتعبير صفة جوهرية في الإنسان، كما أسلفنا، ومرتبطة لديه بالمنطق الذي يعتبره العلماء مقياسا لمعرفة الخطأ والصواب في التفكير والخطاب، وهو يجمع في تركيب معناه الاشتقاقي من فعل (نطق ينطق) بين التفكير والنطق والتعبير، أي مطابقة ما في ذهن الإنسان الناطق (المفكر والمتكلم) بما يلفظه اللسان السليم من كلام مفيد، ويكشف به عما في الضمير، لما يوجد من علاقة عضوية بين اللغة والفكر، كما يبينها العلماء، فيذكرون أن للغة وظائف وللفكر وظائف، ويظهرون العلاقة الوظيفية التكاملية بين ملكة الكلام وملكة التفكير في حياة الإنسان... فيجمعون على وجود هذه العلاقة في ذاتها، ولا يختلفون إلا في الدرجة التي يؤثر بها كل قطب أو طرف في الآخر (الفكر واللغة) ، فبعضهم يرى أن اللغة هي التي تحدد الفكر، وبالتالي تؤثر فيه، والبعض الآخر يرى أن الفكر هو الذي يحدد اللغة، على اعتبار أنه هو أسبق منها في الوجود، ويرى آخرون بأن كلا من اللغة والفكر مترادفان ويتبادلان التأثير بينهما بمقادير متكافئة متفاعلة مترابطة، وهناك من يذهب إلى وجود هذه العلاقات الترابطية كلها في الوقت ذاته منذ البداية، ويقر بتداخلها بعضها ببعض إلى درجة يصعب معها الفرز والفصل، وهذا هو الأمر الذي يهمنا إثباته في حديثنا عن الخطاب، مع الإقرار بأن الفكر هو أسبق من اللغة لإمكان وجوده مستقلا عنها لدى الأشخاص الصم البكم الذين لا ينقصهم الذكاء والقدرة على التفكير الذي يعتبر موهبة وملكة مستقلة بذاتها بصرف النظر عن قدرة الإنسان على التعبير عنها باللسان والبيان.

وخلاصة ما يراه العالمان النفسيان (بياجي) و(فيكوتسكي) هو أن لكل من اللغة والفكر جذورا مستقلة عن بعضها، إلا أنها تلتقي في نقطة ما أثناء النمو. فالعلاقة إذن بينهما هي علاقة تكاملية، أي أن كل واحد منهما يخدم الآخر ويكمله، والنتيجة هي أن الفكر يصبح شيئا فشيئا لغة، كما أن اللغة تصبح أكثر عقلانية

بالفكر الذي يقيس العلماء مدى صوابه وخطئه في العمل بالمنطق السالف الذكر (...).

ورغم اقتناع بعض العلماء الآخرين مثل (واطسون) بأن التفكير يمكن أن يحدث بدون استعمال كلمات (كما أسلفنا)، إلا أنه مقتنع بأن التفكير هو عبارة عن كلام خفي (غير مسموع)، مثلما أن اللغة والكلام وبالتالي الخطاب (الذي يعنينا هنا) هو فكر مسموع.

إن حاسة السمع هي الوسيلة الأولى للإدراك والعلم الأكثر استيعابا والأوسع تلقيا في حياة الإنسان، بدليل أن الأذن هي الحاسة الوحيدة التي تعمل في النور والظلام، وفي اليقظة والمنام، وفي الليل والنهار، وهي المصاحبة للإنسان في كل مكان طوال وجوده منذ ما قبل خروجه من رحم أمه، إلى آخر لحظة من حياته، والله دائما يذكر وظيفتها، قبل الحواس الأخرى، فيقول: «وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» (النحل / ٧٨)، ويربط السمع بالكلام فيقول: "صم بكم عمي فهم لا يرجعون" (البقرة / ١٨) ، والدليل على ذلك من الناحية العلمية هو ضرب الله على آذان أهل الكهف حتى لا يوقظهم سماع أي صوت من حولهم طوال مدة رقادهم!

□

والدليل العلمي الآخر على التصاق حاسة السمع بحياة الإنسان وارتباطها الحيوي بوجوده، هو أن الطفل يسمع صوت أبويه في بطن أمه، بينما لا يرى الأشياء إلا بعد أيام من ولادته، ولا يميز فوارقها العامة وألوانها إلا بعد شهور من عمره، ولعل سنة الآذان الشرعي في أذن الوليد دليل على أنه يسمع ويخزن ما يسمع في ذاكرته مثلما يخزن صوت أمه وأبيه قبل ولادته...

وإذا كان السمع ميزة تجمع بين الإنسان والحيوان، كما هو معلوم، فإن النطق والكلام والعقل والإدراك الذهني لما يسمع وما يلفظ من قول هو ميزة فريدة خاصة بالإنسان وحده في الكون، ولها علاقة وثيقة بالخطاب والاتصال، وهما من أقوى الوسائل الإنسانية التي تدعم الروابط بين الأفراد، ذلك أن الاتصال هو أساس

التفاعل الذي يؤدي إلى نشوء علاقات متنوعة ومتعددة بين الأفراد في مختلف المواقف ابتداء من وجود شخصين على الأقل، إلى ما لا نهاية من الأفراد في المجتمع الواحد، وفي العالم كله، مع تطور وسائل الخطاب والإعلام والاتصال.

والذي يهمنا هنا هو التركيز على أهمية وحيوية هذا التخاطب والتواصل الذي يتم بين متكلمين ومخاطبين، متداولين لهذه الوظيفة الإنسانية الاجتماعية الحيوية بينهما، إرسالا واستقبالا، بتلك الرموز الأساسية ذات الدلالات الفكرية (كما قلنا)، سواء كانت هذه الرموز شفاهية أو كتابية، لفظية أو حركية، (كإشارات وحركات الصم والبكم في أبسط الحالات) والتي لا تخرج كلها عن كونها خطابا ذا مضمون فكري دلالي إنساني اجتماعي ثقافي، قد لا يختلف عن المضمون الخطابي العادي إلا في الدرجة والفعالية، قياسا بما يحدده العلماء من شروط الخطاب الجيد الكامل العناصر والوسائل التي يحصرونها في ثلاثة أمور هي: الاتصال الجيد (الاستقبال) والتبليغ الجيد (الإرسال) والفهم الجيد (الإدراك)، وهي وسائل وشروط ثلاثة لا تكون فعالة إلا إذا كانت متكاملة أثناء العملية الخطابية أو الاتصالية، ومن ضمنها أعضاء السمع والنطق الأساسية بالنسبة للخطاب الشفهي، الذي يعتبر سيد الخطابات جميعها، وأصلها وأسبقها في الوجود، من آدم عليه السلام، الذي علّم الأسماء كلها (شفهيا بطبيعة الحال) ومارس الخطاب استقبالا وإرسالا وإدراكا وتبليغا قبل أن تخترع الحروف ويعرف الخطاب والاتصال بالقراءة والكتابة، مع تقدم الإنسان وتطور حضارته ابتداء باختراع الحروف المسمارية في الحضارة السومرية منذ حوالي ٥٢٠٠ سنة بالتقريب(...).

ولذلك فإن الحديث عن السمع هنا مهم في حياة الإنسان بقدر علاقته بوظيفة الإنسان الأساسية في الحياة وهي العبادة والإصلاح كما قلنا، وتلقي الرسالة بالسمع وتبليغها بالكلام، فكان القول المسؤول عند الله دوما جزء من العبادة المجازى عليها بالثواب أو بالعقاب!

وإذا تركنا مسؤولية الجزاء على فعل الحواس (في عبادة الله جانبا)، وركزنا هنا على ما يهمنا في هذه المحاضرة، وهي أهمية الخطاب وعلاقته بحياة الإنسان في كل

مظاهرها، ومسؤولية الإنسان، وجزائه على عمل العقل باللفظ والقول المستغرق والمتضمن بالضرورة في مفهوم ودلالة العمل في العبادة، التي تتكون (كما هو معلوم شرعا) من فعل الجوارح وقول اللسان المعبر عن النية، وإظهار ما في الطوية بالخطاب المسؤول والمتميز بفحوى معناه ومستوى ومحتوى مبناه، تأثرا وتأثيرا، حديثا وسماعا، تقبلا وبلاغا، فإن من أبرز ما يتمثل فيه هذا النوع من الخطاب الإنساني ودوره في حياة الناس أفرادا ومجتمعات عبر مختلف الأمم والقارات، هو حاجة الإنسان إليه في كل حين دون استثناء أو استغناء من أجل اتصال أهل الأرض بالأرض، أو اتصال أهل الأرض بالسماء، أو تلقي خطاب الله إلى أهل الأرض عن طريق الأنبياء والأولياء «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم» (الشورى / ٥١) تبليغا، وتوصيلا، وتواصلا، بين البشر في كل شؤون الحياة، اجتماعا ودعوة وعلما وسياسة وحضارة!!

ثانياً– دور الخطاب في تبليغ الرسالات السماوية إلى البشر :

وما دامت العبادة هي علة وجود البشر، كما قلنا، وخاصية النطق والبيان، عن مكنون الأذهان، وهي سمة جوهرية فارقة ومميزة للإنسان عن الحيوان، كخاصية الاعتقاد والإيمان بالغيب، والقدرة على تجريد المعاني الكلية من المحسوسات والتعبير عنها بالكلمات، التي يعجز عن القيام بها كل ما دونه من المخلوقات... فإن أول رسالة للبشرية بدأت بالخطاب، بدليل أن أول إنسان علم البيان ولقن الأسماء ووهب اللسان، كما يتجلى ذلك في قوله تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» (إبراهيم / ٤).

وفي ذلك أقوى الأدلة على أهمية الخطاب في تبليغ الرسالات، ومنهج السماء لدى جميع الأنبياء والمرسلين، ودور اللسان الذي يمثل الأداة الأولى في الخطاب، والمقصود باللسان في القرآن هو اللغة وحاسة الذوق في الوقت ذاته، كما تعبر عنه

الآية: «ولسانا وشفتين» (البلد/ ٩) .علما أن لفظ "اللغة" لم يرد ذكرها في القرآن أبدا، فدائما أتت اللغة متضمنة في لفظة "اللسان" كما هو واضح في الآيتين المذكورتين «ولسانا وشفتين» و«وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه».

وهذه الآية الأخيرة تدل على أن الله سبحانه وتعالى يهدف من وراء إرسال الرسل بألسنة أقوامهم إلى التأكيد على أهمية الخطاب، ودور اللسان في الجدل بالحجة العقلية والبرهان والإقناع بالمنطق، والإفهام والشرح من باب "خاطب الناس .بما يفهمون" وهو ما يعني من جهة أخرى أن اللسان بالنسبة للنبي والرسول هو مثل السمة أو الصفة البشرية له، حتى يسقط بها الله ذرائع الكفار، في التحجج بعدم معرفة ما يبلغون به عن طريق الرسول الذي يبعث من بينهم وبلسانهم... حتى لا يقولوا لم نسمع الكلام، أو لم نفهم لغة الخطاب، ولذلك جعل الله الرسل من البشر وجعل العنصر الإنساني والعنصر اللساني أو الخطابي، هما جوهر الرسالة الربانية في ضبط وتبليغ التكليف للبشرية...

إن في خطاب الله لجميع الأنبياء والمرسلين بدءًا بآدم ص إلى محمد ث مرورا .بموسى ص الذي خصه الله بالخطاب المباشر«وكلم الله موسى تكليما» (النساء/ ١٦٤) «إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى» (النازعات/ ١٦) «اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» (طه/ ٤٣، ٤٤) ما يفيد من التوجيه الإلهي إلى الرسل أن يكون خطابهم لينا وجيدا ومؤثرا، وليس منفرا للسامع المدعو إلى المنهج القويم، وفي معنى الآية: «وكلم الله موسى تكليما» ما يفيد التشديد الإلهي على أهمية الخطاب في تبليغ الرسالات من الله إلى الرسل، ومن الرسل إلى البشر، .بمن فيهم الطغاة مثل النمرود مع إبراهيم وفرعون مع موسى وهارون...

كما يؤكده أيضا قول موسى لربه عند تلقي رسالة تكليفه «أخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون» (القصص / ٣٤) ويدل في الوقت ذاته على أن محتوى الخطاب الرسالي كله كلام مفيد، يتطلب مرسلا أو مبلغا ومتلقيا، وان حاجة الإنسان إلى الكلام والخطاب ضرورية في حياته (كما قلنا)، كدعاء موسى «ربي اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة

من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا» (طه / ٢٥، ٣٤)، وتسبيح يونس ومناجاته ربه في بطن الحوت: «فلولا أن كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون» (الصافات / ١٤٤) و«أمّن يجيب المضطر إذا دعاه» (النمل / ٦٢) و«وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما» (يونس / ١٢) أو مخاطبة الإنسان بني جنسه، والتواصل معهم في كل ظروف الحياة، وأوضح ما تتمثل فيه قيمة التواصل والتخاطب في حياة البشر واستئناس الإنسان بالكلام من ومع أخيه الإنسان هو وضع المذنبين في السجن الانفرادي كأقسى أنواع العقوبات المعنوية، حيث يحرم فيه السجين من الاتصال والتخاطب إرسالا أو استقبالا مع بني جنسه!

إن كل ما أنزل في القرآن وما أرسل من رسل مبني على الكلام، بدليل أنه لم يبعث رسولا فاقدا لحاسة السمع والنطق، لكون رسالة الرسول الأساسية هي البلاغ، بنص قوله تعالى: «وما على الرسول إلا البلاغ» (العنكبوت / ١٨) و«إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر» (الغاشية / ٢٢) وقوله: «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى» (النجم / ٣، ٤).

وهل يوجد بلاغ للشعوب والأمم بغير الوسيلة الأولى للتبليغ وهو الخطاب الشفاهي أولا ثم المقروء بعد تقدم البشرية واختراع الحروف (كما أسلفنا)، مثلما هو معمول به في القرآن الكريم.

إن القرآن كله خطاب رباني منطقي مقنع (محكمه ومتشابهه) يدعو إلى التعقل والتدبر والاستنباط والاقتناع والإقناع بالحجة العقلية والبرهان.

والدليل على ذلك نلمسه في ثلاث آيات بينات معبرة عن دور الخطاب القرآني وأهميته في التأثير على النفوس والأذهان لدى الإنسان.

١- قوله تعالى في وصفه لموقف المشركين من القرآن الكريم بأنهم كانوا: «وهم ينهون عنه وينأون عنه» (الأنعام / ٢٦) ينهون عنه الناس مخافة أن يتأثروا بخطابه الآسر وحجته القوية المفحمة التي لا يقدرون على دحضها... وينأون عنه وهم أرباب الفصاحة والبيان، خوفا على أنفسهم من عدم القدرة على مقاومة التأثر

به... كمن يبتعد عن النظر إلى أشعة الشمس الساطعة في وضح النهار، مخافة فقدانه حاسة الإبصار!!

٢- قولهم: «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» (فصلت/ ٢٦) وهم بذلك يقرون بأن الغلبة التي يطمعون فيها ليست بنفس الحجة والوسيلة التي برعوا فيها وتحداهم الله بها، وهي الفصاحة والبيان، كما يظهر ذلك في وقوله تعالى: «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» (الإسراء / ٨٨)، فقد تحداهم أولا بأن يأتوا بعشر سور مثله إن كانوا يرون أنه مفترى، بقوله: «أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون» (هود / ١٣، ١٤)، فلما انقطعوا وقامت الحجة عليهم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله وأخبر أنهم لن يفعلوا، حيث قال: «وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين» (البقرة/ ٢٣، ٢٤). ويشمل هذا التحدي قصار السور كما يشمل طوالها، فهو تحداهم بسورة الكوثر والإخلاص والمعوذتين والنصر... أو أية سورة يختارونها، ومن المعلوم أن العرب لم يحاولوا أن يفعلوا ذلك! فقد كانوا يعلمون عجزهم عنه، ورأوا أن سبيل الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن. وبعد هذا العجز الكلي عن التحدي، كما هو ثابت، عمدوا إلى التشويش على كلام الله، واللغو فيه (كما سبق)، والتعتيم عليه، وهو في ذاته اعتراف ضمني منهم، ودليل على قوة الخطاب القرآني في التأثير على العقل الإنساني الفطري السليم الذي لم يحط به الران، فقفل عليه منفذ النور المبين، ولعل في طريقة إسلام عمر (ض) دليلا على ذلك، إذ مكنه الله من سماعه في بيت أخته في الوقت المناسب، قبل أن يختم على قلبه، مثلما وقع للمكابرين كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغير وغيرهم...

وإننا نعتقد جازمين أن لو وجد الكفار في الخطاب القرآني شيئا مما ينفر الناس منه ولا يجذبهم، ويبعدهم عنه ولا يقربهم... لحثوا هم أنفسهم الناس على سماعه ليتخذوا منه حجة عليه، ولكن نهيهم الغير عن سماعه والنأي عنه، ثم الأمر باللغو فيه، للحؤول دون سماعه الجيد من الغير، لإدراك معناه ومغزاه الذي أدركوه، لدليل قاطع على إدراكهم لخطورة تأثيره على عقول أتباعهم. وهو تأكيد لمصداقية قوله تعالى: «إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون» (يونس / ٦٧) و(الروم / ٢٣) لتؤكد لنا هذه الآية أيضا على أن الأصل في العلم هو السمع، والسمع هنا أتى بمعنى العلم والعقل... مثل كلمة (انظر) التي تأتي بمعني (أعقل وأعلم وتدبر...)

٣- قولهم: «ولّما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنّا به كافرون، وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» (الزخرف / ٣٠، ٣١) دليل أيضا على أن أئمة الشرك والكفر البلغاء والفصحاء والشعراء يدركون في قرارة أنفسهم قوة الخطاب القرآني، مبنى ومعنى، وعجزهم على تحديه بالإتيان بمثله، كما أسلفنا، أو بالافتراء عليه بقولهم على المنزل عليه الذين هم متأكدون من أميته وعدم القدرة على أن يأتي بمثله من عنده «ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلّمه بشر» (النحل/ ١٠٣) وسماعهم الرد من السماء على ذلك الافتراء بما أبهتهم بقوله المباشر: «لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» (النحل/ ١٠٣) أي هو لسانكم وكل حروفه ومخارج كلماته ومادة تركيبه وبنائه وبيانه من مخارج حروفكم، ومادة كلامكم وبيانكم ومعلقاتكم!!

إن اصطدامهم بهذه الحقائق كلها دفعهم إلى التخلي عن مجابهة القرآن في ذاته والتصادم معه بسلاحه واللجوء إلى صب جام غضبهم وحقدهم على متلقيه ث، حسدا له عليه واستخسارا له فيه، وهو اليتيم الضعيف الذي اتبعه الأرذلون والفقراء والضعفاء (كما قالوا)، وإن ترشيحهم لعظيم من "عظمائهم" لتلقي هذا التنزيل الحكيم (في قرارة أنفسهم) لدليل على أن رفضهم وغضبهم وسخطهم كان على المنزل عليه وليس على المخاطبين به في ذاته، بعد أن عجزوا عجزا مطلقا على رفع تحديهم له باللسان والبرهان والبيان، وفشلوا في محاربته بمادة خطابه من الألفاظ والحروف

والكلمات، فعمدوا إلى محاربته بالسنان والحراب والدسائس والمؤامرات والتحالفات مع اليهود ونقض العهود...

وإنهم لم يطعنوا في القرآن ذاته لقوة حجته كما هو ثابت، ولكنهم ظلوا يطعنون في المنزل عليه بقولهم: (إنه ساحر وشاعر ومجنون...) علما أنهم لم يصفوه بالأمية، لأنهم يدركون أنها صفة تشرفه، وليست مذمة تحط من قيمته، ومع ذلك فقد حاجهم القرآن، وأبطل كل ادعاءاتهم وقوضها من أساسها، كما فضحهم وكشف عن خفايا نفوسهم بقوله تعالى عنهم، وعن تأثير آياته فيهم: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين» (النمل / ١٤).

إن العبادة هي طاعة أمر المعبود ب (افعل ولا تفعل)، كما قلنا، والأمر لابد له من خطاب لتبليغ شروط التكليف إلى العباد وأن الدليل على علاقة الخطاب بالعقل وعلاقة العقل بالتكليف، هو رفع القلم عن الصبي والمجنون، وعدم التوجه إليهما بالخطاب، وهذا ما يتبين في معنى الآيات مثل: "تعقلون"، "تسمعون"، "يتدبرون"، "يتفكرون"... وذلك تأكيد على تمشي الخطاب القرآني مع مستوى نضج العقل الإنساني، حيث أتى كله خطابا معجزا في ذاته، دون حاجة إلى معجزة مادية تدعمه في حينه، مثلما حصل مع خطابات غيره من الأنبياء السابقين.

ومما جعله يتسم بتلك الأوصاف، ويتميز بتلك الخصائص المعجزة كلها، هو ربطه بين القول المجازى عليه، مثل الفعل، وبين الإيمان المرتبط بالعمل والمجازى عليه مثله، والذي يتضمن في معناه القول والفعل معا، والذي يشمله ويجمله الله تعالى في قوله: «ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» (الزلزلة / ٧، ٨) ويلخصه صاحب الأرجوزة الفقهية (ابن عشير) في بيته الشهير بقوله:

(فصل وطاعة الجوارح الجميع قولا وفعلا هو الإسلام الرفيع)

ولهذا جعل الإيمان المجرد وحده غير ذي جدوى، بدون تزكيته بعمل الصالحات، وهو ما نلاحظه على امتداد الخطاب القرآني كله، حيث لا نجد فيه كلمة الإيمان إلا مقرونة بالعمل الصالح، ولا نجد القول إلا مقرونا بالفعل: «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» (الصف/ ٢، ٣).

إن القرآن هو الفارق والفاصل بين الحق والباطل الذي لا فرقان بعده، لأنه هو آخر خطاب الرسالات التي تميزت بتكامل القول فيها بعمل الجوارح، بحيث ورد فيها أن عمل اللسان وحده قد يساوي عند الله وفي الحياة أكثر من عمل الجوارح في كثير من الأحيان.

إن الخطاب أتى مرتبطا بالسمع أساسا في كل الرسالات «قال ربي أرني أنظر إليك قال لن تراني» (الأعراف / ١٤٣).

إن مجال السمع لدى الإنسان أوسع بأضعاف من مجال البصر ومجال الرؤية، فنحن نسمع عن فعل الرسول ولا نراه، ونسمع عن معجزات الرسول وكل الأنبياء الذين بعثوا من قبله، بالخطاب القرآني فقط، ولا نراها أبدا. فكلها نعرفها من خلال سماع القرآن والمتمثلة في قوله تعالى في آيات كثيرة عن الأقوام الأولين مثل قوله: «وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين» (القصص/ ٤٤)، «وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكّرون» (القصص / ٤٥، ٤٦)، «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين» (يوسف / ٣) ولهذا السبب كانت معجزات الأنبياء كلها مشاهدة لأقوامهم بالحس واللمس، ونحن لا نعلم عنها إلا ما نبأنا به القرآن عنها، إلا معجزة الرسول الخاتم الأعظم، فهي معقولة ومسموعة ودائمة وقائمة بالبرهان العقلي الصامد المتحدي للإنسان في كل زمان ومكان. وإن هذا الطابع المحلي والمرحلي الخاص بالأنبياء السابقين، هو الذي بينه الله في القرآن بإعطائه صفة الشمولية في الخطاب الخاص الموجه لكل البشرية بقوله: «**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**» (سبأ / ٢٨) و«قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا» (الأعراف/ ١٥٨) و«يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم... » (يونس / ١٠٤). بدليل أن كل الأنبياء والمرسلين السابقين نادهم الله بأسمائهم الشخصية (يا آدم)، (يا نوح)، (يا صالح)، (يا هود)، (يا إبراهيم)، (يا لوط)، (يا شعيب)، (يا موسى)، (يا هارون)، (يا يحيى)، (يا عيسى)... إلا محمد

ث فقد خاطبه الله دائما ب: «يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال» (الأنفال/ ٦٥)، و «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته... » (المائدة / ٦٧).

ومن الأمثلة الواضحة على أهمية الخطاب في حياة الكائن الإنساني الذي خلقه الله ليعبد ربه من خلال المنهج الذي يحدده بالدين عن طريق الرسل، هو جعله الرسالات السماوية متدرجة في معجزاتها الرسالية من الملموس والمنقول إلى المجرد والمعقول، وإن جوهر الإيمان في الحقيقة لا يكون إلا غيبا، والغيب لا يكون إلا مجردا ومعقولا، وهذا ما نجده واضحا في قوله تعالى في أولى آياته البينات: «ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب... » (البقرة / ١، ٣) ...

وإذا كانت الحواس تخاطب بالمادة المحسوسة والملموسة، كما قلنا، فان العقول لا تخاطب إلا بالمعقول المجرد وحده (أي الإيمان بالغيب) ولا وسيلة لنقل المعقول وتبليغه إلى السامع إلا بالقول والخطاب والكلمة التي تخرج من العقل باللسان إلى الأذن والفؤاد عن طريق الصوت والنطق والتبليغ بالقول المعقول (مسموعا أو مكتوبا أو مقروءا أو منقولا) «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته... » (المائدة / ٦٧). بالكلام والخطاب القرآني والبياني المعجز والمقنع للذين يؤمنون بالغيب عقلا وحده، والتكليف كله مناط المعقول (المقول منه والمنقول!!)

ومن دلائل ارتباط الإسلام بالسمع والكلام والخطاب هو اكتفاء الله تعالى في تبليغ الدين الخاتم بالخطاب وحده في وقوله: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه» (التوبة / ٦) بما يعني أن في الخطاب القرآني وحده ما يكفي لإقناع العقل السليم فطريا بالحق، فيتبعه دون أن يدعم بأية معجزة مادية أخرى... وأن السماع هنا وحده يكفي لإقناع الإنسان برسالة السماء في القرآن، بما فيها من حجة وقوة إقناع وبرهان، وتأثير في النفوس والعقول السليمة، إلا المريضة منها والمكابرة المتعصبة، استنكافا واستكبارا عن دين الحق دون مبرر مقنع، وهذا ما يكشفه الله في سورة الإسراء (الآيات ٩٠، ٩٣).

وإن ما يدل على مبدأ الإقناع بالتي هي أحسن وأعقل، ومخاطبة العقول بالكلام المعقول في القرآن هو الخطاب الواضح الذي يتمثل في قوله تعالى: «حتى يسمع كلام

الله» ولم يقل حتى يرى أو يشاهد آية الله المادية (مثلما طلب المشركون)، في آيات الإسراء المذكورة، فقد قال (يسمع) والكلام هنا هو القول، والقول هو ترجمان العقل، وصورته الخاصة التي يتحمل الإنسان الناطق (المفكر والعاقل) مسؤوليته كاملة فيما يقول وما يفعل بالعضلات، كما قلنا، وهو ما يتمثل في قوله تعالى: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» (ق/ ١٨) وقوله: «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» (الجاثية/ ٢٩) والعمل هنا (كما قلنا)، هو القول والفعل معا، وقوله أيضا: «كبرت كلمة تخرج من أفواههم» (الكهف/ ٥)، وقوله: «وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا، لا مبدّل لكلماته، وهو السّميع العليم» (الأنعام / ١١٥)، تدل كلها على ثقل الكلمة وأهمية الخطاب ودوره في الدعوة والتبليغ، وتلخصه كله الآية الكريمة: «يا أيها المزمّل، قم الليل إلا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلا، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا، إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا» (المزمل/ ١، ٥)، والقول الثقيل المقصود هنا هو هذا القرآن الذي تعهد الله بحفظه بنفسه من التحريف، وهي ميزة خاصة بالخطاب الثابت والخالد والصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... وهو كلام وقول ثقيل كله خطاب للعقل والقلب وعلة تنزيل القرآن وثقله وإعجازه متضمنة في داخله، ومعجزته في نصه، الذي يخاطب كل العقول والأذهان في كل زمان ومكان، مع مسايرة التطور والتدرج في الخطاب تمشيا مع تطور عقل الإنسان في كل ميدان دون تناقض أو زيادة أو نقصان «ما فرطنا في الكتاب من شيء» (الأنعام/ ٣٨)، مما يثبت اكتمال الرسالة السماوية الخاتمة المستوعبة في القرآن الكريم، التي كانت كلها خطابا معجزا ووعدا منجزا بالحق المبين نابضا بالصدق اليقين، موضحا لمعناه محصنا لمبناه بالحفظ المؤكد في النص ذاته بقوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (الحجر / ٩).

ودون الخروج عن الموضوع الذي يهم إظهاره هنا، وهو نوع هذا الخطاب وخصائصه وعوامل تأثيره في نفوس المخاطبين، سنواصل الحديث تفصيلا فيه بالنسبة للخطاب الإسلامي في القرآن، كتاب هذا الدين الدائم والشامل والكامل، الذي قال عنه تعالى: **"اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا"** (المائدة / ٣).

ثالثاً– مميزات الخطاب القرآني في الدعوة والتبليغ :

بعد أن بينا أهمية الخطاب ودوره في حياة الإنسان من حيث علاقته بخالقه في مجال العبادة، تلقيا للرسالة وتبليغا لها ومن حيث علاقته في الحياة بأخيه الإنسان... نتناول مميزات الخطاب القرآني من حيث الأسلوب والموضوع، وهما من الشروط الأساسية في أي خطاب ناجح يرجى أن يأتي أكله ويبلغ قصده في حياة المخاطبين، وسنقتصر هنا لضيق المجال المخصص للمقال، على أهم وأبرز ميزتين في الخطاب القرآني كانتا (حسب اعتقادنا واجتهادنا المتواضع) كفيلتين بجعله خطابا نموذجيا في التلقي والتبليغ وفي التأثر والتأثير، ويتعلق الأمر بالأسلوب والمضمون.

١– الأسلوب: ويتمثل في طريقة الجدل وضرب المثل والإعجاز في الإيجاز... وهو ما يجعل الخطاب دائما مثيرا ومشوقا وحيويا وفاعلا، ويجعل المخاطب طرفا في الموضوع متفاعلا معه، مشدودا إليه، لتعلقه ببؤرة شعوره... وكمثال على ذلك نقتصر على ذكر ثلاث حالات فقط:

الحالة الأولى: تتمثل في حوار سيدنا إبراهيم عليه السلام مع الملك الطاغية، الذي قال: «أنا أحيي وأميت» (البقرة/ ٢٥٨) فأعجزه الله على لسان إبراهيم بقوله: «فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتي بها من المغرب فبهت الذي كفر» (البقرة / ٢٥٨).

الحالة الثانية: تتمثل في دحض حجة المشركين في قولهم: «إنما يعلمه بشر» (النحل / ١٠٣) فأفحمهم الله بقوله: «لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» (النحل / ١٠٣) وإجابة الذين قالوا: «أبعث الله بشرا رسولا»، برده السريع مباشرة: «قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا» (الإسراء / ٩٣، ٩٤) وقوله أيضا: «ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليه ما يلبسون» (الأنعام / ٩) وكذلك إسكات اليهود والنصارى الذين ادعوا أن إبراهيم كان على دينهم، بإجابته المفحمة لهم بقوله: «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين» (آل عمران/ ٦٧)، وقوله: «يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون، ها

أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم... » (آل عمران ٦٥ / ٦٦) .

الحالة الثالثة: وتتمثل في أسلوب الجدال والنقاش وآداب الخطاب في حوار النبي ث لأهل الكتاب من وفد نجران وإعجازهم بطلب المباهلة التي امتنعوا عنها ثم مخاطبتهم بأسلوب رفيع المستوى بقوله اللين والمقنع وغير الجارح: «قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون» (سبأ / ٢٥) هنا نجد الارتفاع بالخطاب الإنساني إلى القمة في النص القرآني بهذا النوع من الأسلوب في الجدل الذي يهدف إلى كسب عقل المخاطب وقلبه، مثل قوله أيضا: «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين» (سبأ / ٢٤)، فلا يفترض النص القرآني النقص في الخصم، مع أنه في الحقيقة يعرف من هو على هدى ومن هو على ضلال، وكذلك في قول الله تعالى لموسى وهارون: «اذهبا إلى فرعون إنه طغي، فقولا له قولا لينا لعله يتذكّر أو يخشى» (طه/ ٤٣، ٤٤) فهذا الأسلوب يثبت نجاعته الفائقة في وضع المتكلم موضع الندية والمساواة مع المخاطب دون إشعاره بالدونية أو الاستعلاء، هذا هو الأسلوب الرفيع الذي يعتبر الخصم المخاطب على حق حتى يثبت باطله، كما هو واضح في الآيتين السابقتين (سبأ / ٢٤ ، ٢٥).

علما أن المتكلم هنا إذا أسند الإجرام إلى نفسه بصريح العبارة، فلا يعني هذا بالضرورة أن عمل المخاطب لا يتضمن إجراما، وذلك لأن العمل كما أسلفنا، هو قول باللفظ، وفعل بالجوارح، وكلا النوعين من العمل يحتمل الخيرية والشرية في الوقت ذاته، بدليل قوله تعالى: «**ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**» (الزلزلة / ٧، ٨)، ومن هنا نجد عبارة "الإجرام" المسندة للمتكلم، مختلفة في الشكل مع العمل (العبارة المحايدة) المسندة للمخاطب، ولكن كلا العبارتين في الحقيقة متساويتان في المضمون، بطريقة غير مباشرة، وهذا هو الأسلوب المطلوب في الخطاب التبليغي الجذاب المفضي إلى الإقناع بالحق واللين والمنطق الصواب!!

إننا هنا نجد نموذجا رائعا لأسلوب الارتقاء بالخطاب للوصول إلى قلب المخاطب وترغيبه في موضوع الخطاب وجذبه إليه وتشويقه وجعله طرفا فيه، أو على الأقل

تحييده قبل اتخاذ موقف سلبي منه دون فهمه وإدراكه، وهو المعنى الذي نستشفه بكل وضوح أيضا في محتوى الآية الكريمة من قوله تعالى: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه» (التوبة / ٦)، وهنا في هذه الآية نجد تكاملا وامتزاجا رائعا في الخطاب بين السلوك العملي والقول اللفظي، فالإجارة خطاب سلوكي والكلام خطاب قولي، وإن نجاح الخطاب الثاني متوقف إلى حد بعيد على نجاح أسلوب تقديم الخطاب الأول.

وإن من أمثلة فصل الخطاب في القرآن الذي أسميناه بالإعجاز في الإيجاز، نذكر كأمثلة فقط قوله تعالى: **"فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتي بها من المغرب فبهت الذي كفر"** (البقرة / ٢٥٨) و«لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا» (النساء / ٨٢) **و** «قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا» (الإسراء / ٩٣). و«قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون» (يونس/ ١٦) و«ما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده» (آل عمران / ٦٥).

وهذه الخصائص المميزة للخطاب القرآني النموذجي في الأسلوب والمضمون معا، تلخصها لنا عمليا الآية القاعدة الشاملة الجامعة الضابطة الموجهة الآمرة بقوله تعالى: «ادعوا إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن» (النحل / ١٢٥).

هذا باختصار إذن ما يتعلق بالأسلوب في الخطاب الإسلامي، وهو ما أطلقنا عليه صفة الشكل أو الإطار أو الإناء، ولكن لكي يكون لشكل الخطاب، قيمة وأهمية لدى المخاطب لا بد أن يكون له مضمون جيد في محتواه يعكس قيمة الخطاب والمخاطب والمتكلم ومستواه، ويحدد أهدافه ويوضح دعواه، ومن هذه الناحية يمكن أن نقول بأن مضمون الخطاب الإسلامي هو مضمون إنساني بكل الأوصاف والمعاني، كما يتمثل ذلك في حالات وقوفه مع الضعيف ضد القوي المتجبر ومع الحق ضد الظلم والباطل ومع الصلاح ضد الفساد ومع الصالح العام ضد الصالح الخاص، ومع العلم ضد الجهل، ومع الاعتدال ضد الإفراط والتفريط، ومع الخير ضد الشر، ومع الحرية ضد الإكراه والجبر، وتحديد معنى الخيرية النسبية، والحرية في اعتقاد الناس

وأعمالهم، يقيدها الخطاب الإسلامي بمدى فائدتها للناس ونفعها لهم ككائنات حية، ومخلوقات عاقلة (وغير عاقلة) بقطع النظر عن الديانات والألوان والأجناس والقرابات العائلية والطبقات الاجتماعية (...).

واذا كان اهتمام الإسلام بالأموات وبالحيوان والنبات ثابتا (كما هو معلوم)، فمن باب أولى وأحرى اعتناؤه بالإنسان كانسان، ويتجلى ذلك في تكريم بني آدم ميتا أو حيا، مؤمنا أو كافرا، وتحريم الاعتداء والظلم من أي إنسان على أخيه في الإنسانية إلا بالحق المحدد شرعا وعرفا، وسواء كان هذا الإنسان قريبا أو بعيدا، عدوا أو صديقا، جارا أو صاحبا، صغيرا أو كبيرا، غنيا أو فقيرا، عالما أو جاهلا، أميا أو كاتبا، مؤمنا أو كافرا... وكمثال على ذلك قوله تعالى في مجال الأخلاق الاجتماعية: «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون» (البقرة / ٢١) و«يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها» (النساء / ١)، و«يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم» (النساء / ١٧٤)، و«يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم» (يونس / ٥٧)، والملاحظ أن خطاب الربوبية موجه دائما للناس، كما يتمثل في قوله السابق: (يا أيها الناس) وليس (يا أيها الذين آمنوا) أو (يا أيها الذين كفروا)..

وإن في وجوب الصدقة على الغني للفقير والمسكين، ووجوب العطف والعون من القوي والكبير على الضعيف والصغير، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل، وسرقة الناس و ظلم الناس، وتحريم ارتكاب الفاحشة كفاحشة من الناس على كل الناس وتحريم قتل النفس بغير حق من الناس على كل الناس، كما هو واضح في قوله تعالى: «ومن قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا» (المائدة / ٣٢) ولا جدال في أن كلمة الناس هنا تعني جنسا واحدا عند الله هو جنس الإنسان، يتلخص هذا الخطاب الإنساني في أسمى المعاني في قوله تعالى: «وأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر» (الضحى ٩، ١٠).

ومن صور هذا التدرج الحكيم والتسلسل القويم الذي يتماشى مع الفطرة الإنسانية للعقل السليم... هو الاعتناء بالضعيف قبل القوي، وبالصغير قبل الكبير، وبالمريض

قبل المعافى، وكذلك العطف على الوالدين ومعاملتهما بالمعروف حتى ولو كانا كافرين، ومراعاة حق الجار في الجوار ولو كان من الكفار، ومثله أيضا تحريم السرقة والكذب والزنا، واستبشاعه شرعا وأخلاقا، واعتباره من الكبائر في ذاته بقطع النظر عن الفاعل والمفعول، من حيث إيمانه وكفره كانسان، مع مراعاة دوافع الغريزة البشرية في التسوية بين الجنسين في العقاب، والمنع والردع، للحفاظ على الأعراض، وتفادي انتشار الأمراض، واختلاط الأنسال والأنساب بين البشر، للحؤول دون تفكيك روابط الأسر، بارتياب الناس في أنسابهم وأنسالهم... بما يميزهم من فضائل وخصائص أخلاقية إنسانية تسمو بهم عن كل الكائنات غير العاقلة بتقديرهم وتقديسهم لمفهوم الشرف قبل البحث عن العلف!!

وفي هذا الإطار أيضا يدخل تطبيق مبدأ المساواة في العدل بين الناس بصريح العبارة الواردة في الخطاب الرباني القائل «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» (النساء / ٥٨)، ويلاحظ أنه لم يقل بين المسلمين أو بين المؤمنين، وإنما قال (بين الناس)، ويتمثل هذا العدل السماوي الإنساني في عدم تحمل أي نفس وزر أخرى، لا في الدنيا ولا في الأخرى، وأوضح ما يظهر في هذا العدل المطلق الذي لا يحول دونه مال قارون أو جاه فرعون وسطوته، ولا نبوة أو بنوة نوح وصحبته... حيث لم يشفع الله لابن نوح بالنسب، ولا لامرأته بالحسب، ولا تحملت امرأة فرعون وزر زوجها بالصحبة واللقب، ولا عوقب سحرته على طاعته بتلبية الطلب... فكل واحد منهم نال جزاءه بالعدل والقسطاس على ما كسب وما احتسب!!

وإن الأمثلة في القرآن والسنة على الحالات التي يتجسد فيها الخطاب الإسلامي في كل هذه المجالات والحالات لهي أكثر من أن تحصى وتعد في كل الأقطار والمجتمعات على امتداد وجود الإنسان وسماع الآذان، وإن إقبال الناس على الإسلام من كل الأجناس والأقوام، بعد التعرف على حقيقته من خلال سلوك بعض الدعاة من أبنائه... لدليل قاطع على جوهر إنسانية الخطاب الإسلامي في ذاته، كما عبر عنه الكثير ممن اعتنقه بعد فهمه الصحيح من أهله، ومنهم ذلك الزعيم الأمريكي (البلالي) المهتدي الذي صرح اثر عودته من تأدية فريضة الحج سنة ١٩٦٤ وهو (مالكوم إكس) أنه لأول مرة

في حياته شعر بكل صدق أنه إنسان كامل الحقوق والواجبات، ولا فرق بينه وبين أي إنسان ذي سحنة مغايرة لسحنته إلا في درجة الإيمان بربه في قلبه والصدق والتقوى والإحسان في عمله، ولقد لمس في الميدان قول الله تعالى في القرآن (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وهي التقوى التي قربت ووحدت قلوب كل من بلال وصهيب وسلمان وجعلتهم من آل البيت في الصالحين وأبعدت أبا لهب في الغابرين، دون أن يشفع له لون أو دم أو جاه أو قرابة من رسول الله ث أمام بلال الحبشي العبد التقي النقي، الأبيض النفس والعقل والقلب السليم، وهو يفضّل ويقدم على أقرب الصحابة للآذان فوق الكعبة يوم الفتح المبين، دون حرج أو نقص أو استعلاء في الدين... وهو الخطاب الرباني ذي المحتوى والمستوى الإنساني الذي لخصه أحد المهتدين إلى الإسلام من علماء الغرب (المتسمى نصر الدين ديني) بقوله الحكيم الذي حمد فيه الله الكريم على أن عرفه بالإسلام قبل أن يعرف المسلمين، اعتقادا وإقرارا منه بأنه لو عرف خطاب بعض المسلمين وسلوكهم المشين لنفر حتما من دين الحق المبين!

فهذه المفارقة في الخطاب الإسلامي بين ما في الأذهان وما في الأعيان، وبين نص القرآن وما في الميدان من تقصير وإجحاف وغلو وانحراف، واختلال صارخ في الميزان، هي التي تجعلنا نقف قليلا هنا أيضا لتقويم وضعية الخطاب الدعوي الإسلامي في الساعة الراهنة عبر الساحة الدعوية الإسلامية الحالية في بلادنا الشرقية وفي البلاد الغربية.

رابعاً– بعض الملاحظات حول وضع الخطاب الدعوي المعاصر :

لا ينكر منصف من أبناء الأمة ومن الأعداء على حد سواء، بأن الدعاة إلى دين الحق في الوقت الحاضر متفرقون في المذاهب، ومختلفون في المشارب، ومتناقضون في المواقف، ومتباينون في المناهج المتوخاة في الدعوة إلى الإسلام، بين التي هي أحسن والتي هي أخشن!! مما يجعل هؤلاء الدعاة متطرفين في نظر البعض ومعتدلين في نظر البعض الآخر، حسب المناهج والمذاهب والمشارب!

ولكن رغم ذلك كله، لا يجادل في الوقت ذاته عاقل أو ينازع إلا جاهل أو حاقد أو مكابر بأن الإسلام في انتشار مذهل في العالم، ورقعته في اتساع دائم وظاهر في الوقت الحاضر، مما يجعلنا نستسمح في استعمال عبارة مفارقة وغير مألوفة في التعبير، وهي معجزة هذا الدين الذي ينتشر **ويقوى في العالم رغم وضع المسلمين**، ونقصد بالمسلمين هنا مدى تمسكهم خطابا وسلوكا بقيم الدين الذي يحملون اسمه بالانتساب الجغرافي إليه، والحساب الديموغرافي عليه، باعتبار أن كل مسلم رسول لدينه في الحالات السوية لكل الأديان والحضارات البشرية...

ومن ضمن هؤلاء المسلمين المقصودين هنا يأتي رهط وضعتهم الظروف والملابسات ومخططات الأعداء في الداخل والخارج، دعاة ضد الإسلام قولا وعملا!! وقوم آخرون وضعوا أنفسهم دعاة عن حسن نية ورغبة صادقة في الدعوة، واختلفوا في الاجتهاد في فهم معاني وأبعاد الجهاد. فمنهم من اجتهد في سلوك سبيل الدعوة إلى الإسلام بالتي هي أحسن (كما قلنا)، ومنهم من اجتهد أو وجه إلى القيام بالدعوة بالتي هي أخشن! وفي كلا الفئتين يوجد من هم دعاة وهداة بالفعل ومن هم غزاة وجباة حسب النية، والخلفية والمدرسة الفقهية!!

ولنا على ذلك دليلان اثنان من الواقع الدولي الراهن لوضع المسلمين والدعوة إلى الإسلام في العالم:

الدليل الأول: هو أن معظم الحروب والصراعات والمجازر الواقعة في العالم تقع في بلاد المسلمين، ورغم أن الأسباب غالبا ما تخرج عن إرادة الأهلين، إلا أنها مع ذلك لا تدور إلا بالمسلمين وعلى حسابهم، وبأيدي بعضهم (فاعلين ومفعولين)، قاتلين ومقتولين، وكل واحد من الفريقين يجد في خطابه الدعوي ما يجعله يظن أنه من الفرقة الناجية، الهادية المهتدية!! وهذا في ذاته ينم عن وجود خلل في الخطاب والفهم والقصد والعلم، وكل ذلك قد يكون عن حسن نية، أو تغرير وتضليل أو خدعة أو سوء نية من الفاعلين الحقيقيين... لكن النتيجة في واقع الدعوة بالنسبة إلينا سيان، لأنها واحدة في الميدان، الذي يعبر بنفسه، ويغني وضعه عن حاله في كثير من الأحيان...!

الدليل الثاني: رغم كل هذه العوامل المتكاملة لتشويه صورة الإسلام بكل الوسائل من الخارج ومن الداخل، نلاحظ أن الإسلام كدين ينتشر وينتصر في اكتساب عقول وقلوب الملايين، في بلاد الخصوم والأعداء الحضاريين والدينيين أنفسهم، الذين أتى منهم كل البلاء والشقاء الذي يعم بلاد الإسلام الجغرافي في كل مكان... والدليل على هذا الانتصار للإسلام رغم المسلمين الدعاة وغير الدعاة، هو ناقوس الخطر الذي دقه بابا الفاتيكان في السنة الماضية، بتوجيه وإيعاز من رأس الفتنة في العالم وزعيم "محور الخير" الظالم ضد "محور الشر" القائم في العالم!

وقد جدد نائبه هذا التحذير والتحريض في شهر يونيو من هذا العام، بحثه الدول الغربية بأسرها على محاربة الإسلام الذي يدّعون متوقعين (وهم صادقون في ذلك) بأنه سيكتسح كل أوروبا خلال هذا القرن ثقافيا وديموغرافيا، بما يهدد وجودهم الديني والعلماني والثقافي والديموغرافي من الأساس، لأن الديمقراطية والحرية في انتشار هناك، والإسلام الثقافي والديموغرافي والجغرافي في اتساع وتعمق في كل البقاع من العالم، وخاصة في القارة الأوروبية بالذات، للأسباب الاقتصادية والديمقراطية والسياسية والإحصائية السكانية...

وهذا ما دفع في الآونة الأخيرة، إحدى أكبر الدول في هذه القارة ذات التاريخ الصليبي الطويل إلى إنشاء وزارة خاصة للحفاظ عل هويتها الوطنية الموصوفة بالقوية، مخافة ذوبانها السريع والخطير في هوية الدين الكامل، والغالب في الأخير!!

ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى أن من وسائل الوقاية للمحافظة على الهوية الوطنية في هذا البلد الصليبي العريق، هو محاولة الدفاع ضد الإسلام وضربه من الداخل ببعض الدعاة "الضرار" من أهل الدار المدسوسين في صفوف المسلمين، لتزوير حقائق الإسلام وتشويه صورته في الأذهان، بكل الوسائل المرصودة لهم ضمن مخططات مؤتمر كولورادو الهدام لقيم الإسلام، كما هو معلوم لكل المهتمين والمختصين بهذا الميدان!

والخلاصة أن كل مخابر ومخططات الفاتيكان لا تغير قلوب المهتدين إلى الحق في مجتمعات حرة متطورة متحضرة فقدت ثقتها بهرطقات الكنيسة وسلوك الرهبان، مولية وجهها شطر الإيمان والاطمئنان، هروبا من جحيم المادة والآلة إلى واحة الرحمة

والراحة في حضرة التوحيد بعيدا عن خرافة التثليث وعبادة الصلبان، وخاصة عندما وجدت تلك العقول المستنيرة المتفتحة بعض الدعاة (الهداة) وهو ما أثار حضرة الفاتيكان ودفعه إلى التصريحات المثيرة والخطيرة في الآونة الأخيرة!!

وحتى في حالة غياب الدعاة المذكورين من الهداة الحقيقيين... فإن الشباب الغربي يفر بجسده إلى أحضان الموت البطيء هروبا من رتابة وتفاهة الحياة المادية، وما فيها من رفاهية زائفة بحثا عن وهم الأمان والاطمئنان في غير الإيمان... وفي كلتا الحالتين يعتبر هجر الشبان لدين الفاتيكان قائما سواء بالانتحار أو بالاهتداء إلى الإيمان عن يقين وعلم وتدبر واختيار وسبق إصرار!!

وهذا الوضع الغريب والمعجز للإسلام الذي يحارب من كل الأعداء بالأصالة وبالنيابة، ومع ذلك هو في انتشار واضح وفي انتصار كاسح، رغم كل الأوضاع المعروفة التي يوجد عليها المسلمون (كما هو واقع) والتي تتطلب التغيير الجذري والسريع في جميع المجالات، والذي يعنينا هنا هو مجال الخطاب الفعال.

إن إفلاس الخطاب الديني الكنسي والعلماني على حد سواء في الغرب، وعدم قدرة الباطل على محاجة الحق بالعلم والمنطق السليم. أمام هذه الحقيقة الصادمة لهم في الأعماق، ولمحاربتها بكل الوسائل عمدوا إلى طريقة الهجوم الدفاعي باللجوء إلى التضليل والكذب السافر والعنف الظاهر، والكيد لدعوة الحق، والدعاة الصادقين الناجحين، والبحث في مخابرهم ودوائر مؤسساتهم العاملة (تحت عدة عناوين إنسانية واجتماعية وسياسية واقتصادية) على بعض الدعاة "الضرار" المصطنعين على أعينهم في مخابرهم لتعويضهم بهم، بعد تلميع صورهم في أعين من يسمع عنهم في أبواق إعلامهم ومروجي بضاعتهم المسمومة إلى أبناء الأمة، على أنها هي الإسلام المستنير والتقدمي ضد الإسلام الظلامي والقدري أو الحجري!! ومحاولة عكس كل الحقائق عن دين الحق، والتعتيم في الوقت ذاته على عمل هؤلاء الدعاة المخلصين والناجحين (على قلتهم) والذين بارك الله لهم في عملهم المخلص والمثمر الذي أفزع البابا ودفع أم الصليبيين إلى إنشاء وزارة للدفاع عن الهوية، وتعميد المهاجرين المسلمين بإغرائهم بكل الوسائل المادية والمعنوية الصريحة والملتوية للخروج عن الدين واعتناق المسيحية،

كما هو حاصل مع بعض أبناء الأمة في بلاد المغرب الإسلامي، أو تقديم دين جديد بديل لهم مسخ أسموه "الإسلام الأوروبي" بدل الإسلام في أوروبا، كما يقدمه الدعاة الحقيقيون الواعون، الذين يحاربهم الغرب بهؤلاء الدعاة "المقاولين" المروجين لخطابهم هذا الذي يقدمونهم كبديل لخطاب ما يصفونه بالتحريض والانغلاق والإرهاب المهدد للسلم المدني في بلدانهم وبلداننا المجاورة لهم سياسيا وجغرافيا وعلمانيا في اعتقادهم!!

ويمكن القول أن هذا الخطاب "الضرار" المضاد في الغرب، هو في هذا المفترق المفرّق لصفوف المسلمين والمشوش لعقول البسطاء والضعفاء والجهلاء منهم على الضفتين، لخداعهم وصدهم عن دين الله بهذا التضليل المقدم من بعض المحسوبين على الإسلام بأسمائهم "المحمدية" و"العبدلية"، وعناوينهم وألقابهم العلمية المغرية والمضللة (كمفكرين إسلاميين ومعاصرين وخبراء عالميين)، وهم في الحقيقة آذان نقل وفساق قول، ودعاة جهل، ومعاول هدم، لحصون عقيدتنا السمحة من الداخل لحساب مستخدميهم في الفاتيكان وفي كل مكان!! وهذا الخطاب هو الذي يقف وراء العديد من ظواهر البلبلة في صفوف المسلمين المقسمين في واقعهم (كما أشرنا) من حيث يعلمون أو لا يعلمون، إلى معتدلين ومتطرفين، وإلى مجاهدين ضد الروس في أفغانستان بالأمس القريب مع طالبان، وإلى إرهابيين اليوم ضد الأمريكان في العراق وفلسطين ولبنان...!

ولا يمكن للخطاب التوجيهي الدعوي المضاد للإسلام في هذا كله أن يصدر عن البابا وحده تحت قبة الفاتيكان، ولكن يوكل أمر التبليغ إلى هؤلاء الخبراء العاملين في حقل الدعوة "الضرار" في كل مكان كمخططين وموجهين ومفكرين "إسلاميين" في بلاد المسلمين وغير المسلمين. ولا داعي هنا لذكر أسماء العشرات من هؤلاء الدعاة المضللين، والكتّاب المستأجَرين، والسفراء المفتين المتنقلين، في ربوعنا والعابثين بعقول أبنائنا في بعض أجهزة إعلامهم وإعلامنا المأجورة والمقهورة!!...

ومع ذلك لم ينجحوا، والدليل على فشلهم الذريع هو فزعهم من الأرقام المتزايدة لعدد المعتنقين المهتدين إلى الإسلام من أبنائهم في بلداننا وبلدانهم، بسبب الخطاب الإسلامي الحكيم والناجح، الذي أدّى إلى إفشال كيد هؤلاء الكائدين بواسطة الدعاة

المهتدين من أبنائهم، بلسانهم ومنطقهم، وسلاحهم القانوني العلماني ذاته الذي يدّعي (نظريا) الفصل بين السياسة والدين، وهو لا يفصل عمليا ومحليا أبدا، بين الدين والسياسة عندما يتعلق الأمر بالإسلام والمسلمين في الكتاب والحجاب!!

وهكذا أمام هذه الحقيقة التي عجزوا عن مجابهتها، فلجأوا إلى هؤلاء الدعاة بكل الوسائل التي لا تنقصهم، للتعتيم والتشويش على خطابهم، والطعن في سمعة وكفاءة الداعية المؤثر، واتهامه بعكس ما هو عليه، مما أدّى إلى طرد العديد منهم وغلق أجهزة الإعلام أمامهم(...).

غير أنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين، وذلك برد مخططاتهم وبالا عليهم، بفضل جوهر الإسلام في ذاته ومعدنه الخالص والأصيل (كما قلنا)، وقد ساعد على التنبيه إلى وضوح مبادئه وخصائصه الذاتية، إقرار بعض الساسة والقادة الغربيين أنفسهم بضرورة عدم الخلط بين الإسلام في ذاته، (كأخلاق ومبادئ سلم وعدل ووئام وتسامح في التعايش، بدون صراع أو صدام)، ذلك قولهم بألسنتهم بهدف الفصل بين الإسلام النظري كما يقولون، وبين سلوك المسلمين في الواقع كما يريدون أن يوحوا لنا بفصلهم بين الإسلام (الحق) والمسلمين المتطرفين (الباطل) لضرب المسلمين بعضهم ببعض، وشق صفوفهم، كما هو واقع في كثير من الأحيان... فكان ذلك الإقرار من الساسة الكبار في الغرب، تنبيها ودافعا لبعض علمائهم النزهاء والطلاب النجباء، إلى البحث عن مصادر هذا الإسلام المنوه به للإطلاع عليها في معينه الأصيل قبل التحريف والتضليل(...) فكانت الهداية، وكان الفتح المبين لعقول وقلوب بعض أبناء الأعداء أنفسهم، بدعاية آبائهم أحيانا، وفي أجهزة إعلامهم مجانا!!

على أن هذا المكسب الطيب الذي حقَّقه الخطاب الإسلامي في الغرب بمعدنه الذاتي وبمجهود بعض أبنائه الأصلاء على قلتهم، يقتضي منّا المزيد من توضيح الصورة في هذا المجال الحيوي الخاص، حسب ما رصدناه بالمعايشة في الميدان لعدد من السنين التي ما يزال يعيش فيها الإسلام والخطاب الإسلامي بين نقيضين، وأسلوبين مختلفين وعدوين متحالفين، أحدهما من خارج الأمة، والآخر من داخلها، ومن بعض أهلها!!

خامساً– بعض المقترحات في تحديد أولويات ومجالات الخطاب الإسلامي :

على ضوء الملاحظات التي تيسر لنا تسجيلها على بعض معالم الخطاب الإسلامي الراهن، يمكن أن نقدم بعض المواصفات التي نراها مفيدة لتجنب ما هو مفروض على مسيرة الدعوة فرضا من الأعداء في الخارج وما هو موجود في داخلها من بعض الخلل الملاحظ في المنهج المطلوب والمستوى المرغوب، إن من ناحية موضوع الدعوة في ذاته، وإن من ناحية الوسائل والبدائل وطريقة توصيل الخطاب إلى المعنيين به.

أولا– موضوع الخطاب:

اقتناعا بأن الإسلام في حقيقته واحد، قبل أن تلعب السياسة بالمصالح، فتحدث المذاهب لتحقيق المكاسب... ونظرا لأن كتاب الله واحد، هو هذا الذي يُتعبد به في كل بلاد المسلمين... فإن الضرورة المرحلية تتطلب من المهتمين بالدعوة إلى الحق الابتعاد عن الأمور المذهبية الاختلافية الاجتهادية، وصب كل الجهود على المسائل العلمية الكونية، والآيات التي تفاجئ العالم كل يوم بحقائق ناطقة مذهلة تتحدث عن نفسها بذاتها في مختلف مجالات العلوم وتخصصاته التي لا يختلف على حقيقتها عالمان اثنان من خارج الملّة، فضلا عن أبناء الدين الواحد الذين يصلون بالقرآن الواحد، ذي اللسان الواحد.

فمن هنا يجب البدء باتخاذ المعجزة الخالدة أساسا للدعوة وغايتها، بمتابعة الأحداث العالمية الكبرى في مجال الاكتشافات والاختراعات وربطها بما هو وارد حولها، في كتاب الله الحكيم.

إن ما تحقق في مجال الاكتشافات العلمية، في النصف الأخير من القرن الماضي، والتراكمات المعرفية، وتوفر وسائل التعليم وتبليغ المعرفة عبر الأجيال، مع ارتفاع مستوى التعليم، كما ونوعا، مما جعل العقل الإنساني أكثر وعيا وإدراكا وتطورا وحبا للإطلاع، فتطلب من ثمة أن يلتقي فضول العلماء، مع خطاب الفضلاء من الدعاة إلى دين الحق الذي لا ينبغي أن يخرج عن محتوى هذا الكتاب الناطق بالحق.

إن كل رسول له معجزة مرافقة ومدعمة للرسالة التي تضمنت منهجه (في افعل ولا تفعل)، كما أسلفنا، إلا النبي الخاتم ث الذي ليس بعده نبي جديد أو منهج جديد... فجاءت معجزته في نص خطاب منهجه، وما دام هو آخر الأنبياء والمرسلين، فلا بد أن تظل معجزته حية دائمة، خالدة، ناطقة، ظاهرة، ولا يمكن أن تبقى كذلك إلا بالاهتمام بهذا الجانب الإعجازي في القرآن الذي يجب على كل العلماء والدعاة أن يبرزوا محتواه لكل العقول المتفتحة والمتعطشة إلى معرفة الحق.

وإن في قوله تعالى: «ومنهم من يؤمن به، ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين، وإن يكذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون ممّا أعمل وأنا بريئ ممّا تعملون» (يونس / ٤٠، ٤١)، إشارة إلى توضيح حدود هذا الدين الخاتم، ذي المعجزة القائمة المتجددة مع الأيام، وتبدل الأحوال على الدوام، حيث أن كل معجزاته كلام وخطاب، ولا يطلب من مؤمن أن يؤمن بأية معجزة مادية سوى كلام الله، الذي تتجسد فيه الثلاث آيات مجتمعة. ففيه آيات القرآن المعجزة بالبيان، والآيات المتعلقة بعجائب الكون ونواميسه التي تحدث عنها القرآن بصفة علمية دقيقة وقطعية، قبل حدوثها واكتشافها بقرون، ثم وقعت بعد ذلك بالفعل مثلما وصفها بإعجاز ودقة لا نظير لها في الوجود، وبهذا تتحقق المعجزة المادية وتخرج من المعجزة الخطابية البيانية ذاتها، بحكم تحققها في السنن الكونية، مصداقا لقوله تعالى: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (فصلت / ٥٣)، وهي كما نرى آيات نزلت خطابية، ثم أصبحت مع تقدم العلم، وتطور وسائل البحث في مختلف مجالات الكون معجزات مادية ملموسة. فهي آيات مادية، أثبتتها آيات بيانية خطابية أو بالعكس، أي آيات كلامية بيانية تجسدت في آيات مادية، مما جعل القرآن بهذا حجة مضاعفة متكاملة في مسألة الإعجاز والإقناع!!

ولهذا كان القرآن هو الخطاب الوحيد الذي خص الله نفسه بحفظه من التحريف والتزييف، ليبقى نبيا مرسلا يتحرك وينطق ويخاطب الناس بالحق والصدق في كل حين، ويتحدى كل العلوم والآلات والعقول... بينما كل الكتب الأخرى المنزلة على الأنبياء والمرسلين، قد عهد الله بمهمة حفظها للمؤمنين من أهلها، فلم

يحفظوها، وقد حرفها المنحرفون منهم كما هو معلوم، «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء» (المائدة / ٤٤) وإن هذا التحريف والاندثار الثابت، تاريخيا ونصا للكتب السماوية الأخرى في قوله تعالى: «فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا ممّا ذكّروا به» (المائدة / ١٣) ، وقوله أيضا: «من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّا بألسنتهم وطعنا في الدين» (النساء / ٤٦)، إن التحريف نفسه والنهي عنه والتنبيه إليه، يدل هو في ذاته على دور الخطاب وأهمية الكلمة المؤثرة، والمسؤولية المناطة بها للخلق من الخالق عز وجل!

وهذا ما نلمسه من تدرج في الخطاب الرسالي لديانات التوحيد السابقة، ومعجزاتها المدعمة لها لدى الأقوام المرسلة اليهم في الزمان والمكان... تمشيا مع نضج العقل البشري والارتقاء من المحسوس إلى المعقول والمتمثل في قول قوم موسى: «أرنا الله جهرة» (النساء / ١٥٣) وقول قوم عيسى: «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء» (المائدة / ١١٢) وقول الوثنيين المشركين من أهل مكة عن الأصنام: **"وما نعبدهم إلا لتقربونا إلى الله زلفى"** (الزمر / ٣).

لقد ارتقى الخطاب القرآني بالعقل البشري من هذه الحالة المجسمة إلى تقبل عبادة الخالق المطلق الذي «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» (الشورى/ ١١)، وارتقى العقل الناضج بهذه النقلة النوعية في التجريد إلى القناعة الكاملة والإيمان الراسخ بوجود المطلق عن طريق التدبر والمنطق والاستنتاج والتجريد وحده ...

فهذا هو موضوع الخطاب الإسلامي الذي يكتب له الظهور والنجاح في المستقبل، بدليل أن أكثر ما يخشاه الأعداء ويحاربونه بطرق مباشرة وغير مباشرة، هو هذا المجال الإعجازي الباهر والقاهر لهم، مما يوجب على الخطاب الإسلامي أن ينصبَّ على إظهار الحق بلغة العلم والمنطق، انطلاقا من تدبر آيات تنزيله المحكم المتعلقة بالعلم والخلق والكون... والتي قد غطّت في كتاب الله كل المجالات (جمادا،

ونباتا، وحيوانا، وإنسانا) فيما لا يقل عن ألف آية بينة من محكم التنزيل ومتشابهه، مع ضرورة استرشاد هؤلاء الدعاة بكتب المفسرين القدامى والمعاصرين واجتهاداتهم ومقارنتها بما توصل إليه العلماء والباحثون التجريبيون في عصرنا الحاضر من اكتشافات هامة في مختلف مجالات الكون المنظور، مما لم يكن يخطر على بال بشر قبل قرن من الزمان.. مصداقا لقوله تعالى: «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون» (النمل / ٩٣).

والملاحظ هنا أنه عندما يواجه هؤلاء العلماء والمكتشفون الأجانب بذلك من بعض المسلمين العارفين، يتعجّبون ويُنكرون ذلك على القرآن لأول وهلة، ثم لا يلبثون أن يصدموا بالحقيقة الموضوعية الناطقة، فيدخل بعضهم في الإسلام، وهم من كبار العلماء من مختلف التخصصات والمجالات، ويمتنع البعض الآخر ممن تأخذهم العزة بالإثم بطبيعة الحال، عنادا واستكبارا.

هذا عن الكفار والملاحدة الأجانب الذين لا يعرفون القرآن نصا، ولا يعترفون به تنزيلا، أما عن هؤلاء الدعاة "الضرار" من المنتسبين إسمياً أو جغرافيا إلى خريطة العالم الإسلامي، والناطقين بلغة التنزيل المبين لسانا، فإنهم لما أدركوا الخطر المحدق بجحودهم وبدعوتهم "الضرار"، نتيجة هذا الإعجاز القرآني الباهر والفتح الرباني العظيم المحقق للإسلام والمسلمين... راح هؤلاء الجاحدون يبتكرون أسلوبا جديدا في التضليل بادعائهم الغيرة على قدسية النص القرآني الثابت الذي أصبح عرضة للشك والتغير مع تغير نتائج العلوم والاكتشافات المتلاحقة والمتغيرة باستمرار، فهم بذلك يخشون (حسب دعواهم) أن يفقد هذا النص القرآني قداسته وثباته وإطلاقه... نتيجة ما قد يخبئه المستقبل من بطلان لتلك النظريات التي يربطها العلماء المسلمون بالآيات القرآنية، في إطار البحث عن صور وحقائق الإعجاز العلمي ومحاولة فهم القرآن وتفسيره على ضوئها.

وهكذا ننبّه إلى أن هذه الخدعة التي ابتكرها هؤلاء المشركون، لا ينبغي أن تنطلي على أصحاب البصيرة المستنيرة من دعاة الأمة المرموقين، لأنها لا تدل إلا على أن ما اكتشفه العلم من حقائق تتطابق فعلا مع النص القرآني والحديث النبوي

الصحيح تطابقا عجيبا ومعجزا، وإننا لنجزم أنهم لو وجدوا في هذه الاكتشافات العلمية والحقائق الكونية التي أثبتها العلم الحديث أي تناقض مع آيات القرآن الكريم، لكانوا أول السبّاقين إلى الإشارة إليها تشنيعا وتشهيرا بالقرآن وتشفيا في أهله، كما عهدناهم دائما في مواقفهم المخزية لهم مع الإسلام في غير هذا السياق وفي غير هذا المجال، مثلما فعلوا وما يزالون يفعلون إلى اليوم في آياتهم الشيطانية مع قصة زيد بن حارثة وغيرها(...).

كما تدل تلك الخدعة أيضا على مدى ما أصيب به هؤلاء من صدمة وإحباط في أعماق نفوسهم المهزومة والمهزوزة لما تبين لهم أن التقدم العلمي الذي يجادلون فيه "بغير علم" ويراهنون عليه للدفاع عن طروحاتهم المضللة... يأتي في كل نتائجه القطعية المقرة علميا وعالميا، مسفها لأحلامهم ومحبطا لمخططاتهم بإثباته القطعي للمعجزة الخالدة ووقوفه حجة قوية في صف العلماء من الدعاة إلى دين الحق بشكل غير مسبوق في تاريخ البشرية والحمد لله!

والدليل على أهمية هذا الموضوع كمجال للدعوة والتبليغ، هو محاربته بكل الوسائل من طرف خبراء الدعوة المضادة لصرف أنظار الناس والدعاة عنه، لما رأوه من نتائج طيبة جدا حققها خلال عقدين من الزمان، بما أقنع الآلاف من العلماء والنابهين بحقيقة المعجزة الخالدة، واهتدوا من خلالها إلى الإسلام... وأثبتوا أن هذا الكتاب حق لا ريب فيه، وهو وحي من الله وأنه مكمل ومصحح للتحريف الذي وقع للكتب السماوية المنزلة قبله والمذكورة فيه...

وقد لاحظنا أن هذه الفئة المهتدية إلى الإسلام، وبحكم مواقع تأثيرها في المجتمع، قد أسهمت في تغيير النظرة السلبية السائدة في الغرب عن الإسلام (كدين)، بقطع النظر عن واقع المسلمين(...) وحققوا بذلك نوعا من الفصل "الإيجابي" بين الإسلام والمسلمين، في عدم الخلط بين الاثنين... وقد ساعدهم الخطاب الرسمي لبعض الساسة والقادة أنفسهم (كما أسلفنا)، فدعموا بذلك هؤلاء الدعاة المحليين على مواصلة السير في هذا الاتجاه الصحيح.

ثانياً– وسائل الخطاب:

والوسائل هنا تعني الدعاة المبلغين للخطاب وتعني وسائل تبليغ الخطاب وآلياته، من حيث أجهزة الإعلام والاتصال المختلفة حسب الأهمية والفعالية وقوة التأثير، وذلك لتحقيق النقلة النوعية، بالدعوة من موقع الدفاع إلى موقع الهجوم بسلاح العلم وحده، الذي يدعي الغرب أنه يمتلكه، ويضللنا به لاتباعه موحيا لبعض (دعاته) في بلداننا، بأن النجاة الحقيقية لنا هي في العلمانية التي تضع الكفر والإلحاد رديف التقدم والتطور للإنسان، وتضع الفقر والتخلف صنو التحصن بالإيمان، مثلما شاهد العالم بأسره في تركيا انتصار (رائحة) الحجاب والكتاب، على كل أحزاب الكفر والسفور والفجور، مما يؤكد ويحقق إرادة الله في ظهور دينه على كل الأديان كما هو منصوص عليه في القرآن بأفصح بيان، وهو ما يضاعف مسؤولية الدول، والمؤسسات المهتمة بالدعوة إلى الإسلام بوسائل العصر، ومقتضياته في نوعية الخطاب ومنهجه ورجاله تكوينا ووعيا وتخصصا وإخلاصا وفعالية ومسايرة لمستجدات العصر بعلمه وإعلامه وآلاته، ومستوى أجياله في الوعي والعلم والمعرفة، وعدم قبول أية معلومة كحقيقة أو مسلمة علمية مهما يكن قائلها، دون إعمال العقل فيها والاقتناع بها قبل تبنيها والدفاع عنها ونشرها بالتالي في الآخرين، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

ونختم بالحديث عن وسائل التبليغ الفعالة في هذا العصر، وتتمثل بدون منازع في هذه الفضائيات الكونية والشبكة العنكبوتية التي أوجدها الله لبعض الدعاة من عباده المخلصين في الوقت المناسب للدفاع عن الحق بالكلمة الصادقة والفكر الأصيل ضد الدعاة "الضرار" والتحريف والتضليل الذي يسعى هؤلاء الأعداء الحاقدون على دين الأمة أن يوظفوا تلك الوسائل التي أوجدوها بهدف إطفاء نور الله، وإضلال عباده عن هداه، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره بها ولو كره الكافرون.

فلهذا وجب التذكير والتنبيه إلى المهمة المزدوجة للدعاة المخلصين ليكونوا على بينة من أمرهم، وليدخلوا البيوت من أبوابها، وليبدأوا بتنوير أهليهم وعشيرتهم الأقربين بالمنهج الذي شرحناه، وتنبيههم إلى خطر الخطاب المضاد، الواضح الأسباب الذي لم

يبق للأعداء غيره من وسائل للتحريض ضد الإسلام والتضليل عنه والتعتيم على نوره الساطع، الذي يدق الأبواب بالعلم والحق وفصل الخطاب.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

الجزائر في ١ شعبان ١٤٢٨.